نـافـذة

الانهيار العربي

استطاع الآخر الذي أنجز زراعة عدو حقيقي ضمن البيئة العربية فهمَ الشخصية العربية وواقعها تحليلاً علمياً ونفسياً وروحياً، بعدها نظم اختراقها، وعرف بوابات الدخول الدائم عليها، والأمراض المستشرية فيها، وذهب إلى العمل الدائم والـدؤوب عليها، من دون توقف ولا هـوادة، لذلك يسأل الشارع العربي لمصلحة مَن استمراره وكيفية إيقافه حيث وصل، وسبل إعادة بنائه، وهل نقدر على ذلك ذاتياً، أم إنه لا بد من وجود داعم فاهم لنظرية بنائنا ومؤثر فيها، وأيضاً دعونا نبحث في نظرية الصمود ومقتضياتِه والتضامن وأبعاده، وما الفرق بينهما، وأيضاً مفاهيم المقاومة والممانعة، وإلى أي حد يمكن لنا أن نقوم، وما حاجة كل قطر إلى الوحدة الوطنية، وبين من ومع من تقوم وتصنع، هل مطلوبة بين الشعب الواحد المتنوع في انتمائه وعقائده وأديانه وإثنياته وماهية اللغة الجامعة التي تظهره في حالة وحدة نوعية الوطن؛ اللغة– الإنتاج– الثقافة– المصير المشترك، وهذه الوحدة الوطنية إن تحققت، فهل تكتفي بذاتها؟ أم إنَّ عليها أن تكون متحدةً أيضاً بصورة كلية مع قيادتها السياسية التي تؤمن لها حقوقها، وتديرها بحنكة ودراية إيجاباً أم سلباً، والغاية دائماً هي الحفاظ على السلم الأهلي، وسلامة الوطن أمام المعتدي بعد تحديده بدقة، والاتجاه إلى إنشاء قوى داعمة له من أجل إزاحة وإنهاء اعتدائه، ما الحجة التي نحملها ونعمل من خلالها لوقف التدهور؟ ما الذي ينبغي علينا أن نسكت عنه، والذي يجب أن نبيحه؟ ما أسباب مصائبنا؟ أليست جميعها مدونةً في سجلنا التاريخي الحديث منه والقديم؟

طبيعي أن يسأل الشعب العربي بشوارعه الضيقة والعريضة عن حالة الانهيار الهائل للحضور العربي كأمة ومجتمعات وأفراد، وغير الطبيعي هو أن نصل إلى ما وصلنا إليه بعد أن اختلَّ كل شيء؛ المقاييس، الحدود، التشويه الكبير للمبادئ والقيم، اتهامات كبرى وصغرى لأفراده، لمجتمعه، لقيادته على اختلاف مراكزها، الشكوك حلت محل الثقة، التعاملات التجارية والدينية والدنيوية تدل على بنية مجتمعاته، وأنها متمتعة بثقافة واحدة، تتجلى في الأنا، خضوع الأمة العربية برمتها لمرحلة الاستعباد اللا مرئي بعد مرورها بمرحلة الاستعمار المرئي، وذلك نتاج تصدع بنائه وهشاشة أساساته، هل هذه الحقبة التي تمرُّ بها الأمة العربية ضرورية من أجل ولادة جديدة؛ أي خضوعها للضغط، وانحصارها ضمن أسوارها، وهجرة عقولها الخبيرة إلى خارج حدودها وقواها البناءة واستكانة فكرها واستسلامه لمصالحه الضيقة، حيث نجد أن الاهتمام تحول بشكل نوعي من العام إلى الخاص؛ أي من الأمة الكبرى إلى الشعب القطري، ومن القطري إلى المناطقي، أو الطائفي، إلى الفردي الذي أخذ يبحث عن نجاته وبقائه على قيد الحياة بسد الرمق، والبحث عن لقمة العيش التي أرعدته الصدامية التي تنادي بالوحدة، وأفزعته الاشتراكية الغريبة عن طباعه، ورضي أن يكون بلا حرية، لأن الحرية في أسها وأساسها مقيدة دينياً وقانونياً وحدودياً وعالمياً؛ أي إنها وهم يسكن مفردة واسعة وعريضة، وشعار رنان، لأن الإنسان عبد للإله وللحال، وللقضايا الصغيرة والكبيرة، وللخطيئة والمال. نعود للسؤال وأضيف: هل امتلكنا نحن العرب قيماً نوعية؟ هل حافظنا عليها؟ هل مهددة حقيقة بالانهيار؟ هل لدينا أزمات أخلاقية، نشأت بسبب ضعف ووهن العادات والتقاليد والأعراف الجيدة والخصال الحميدة التي تملكتنا إلى حين، بفضل انتشار تعاليم الديانات، إضافة إلى الديانة الإسلامية التي أضفت على العقلية العربية الكثير من الإيجابيات، إضافة إلى ما كانت عليه هذه الشخصية، وهل الشخصية العربية منحصرة أساساً في الكتلة التاريخية السورية التي بلغت حدودها ما يقرب من ستمئة ألف كم٢، ومنها انسابت وتعممت إلى كامل الجغرافية التي أطلق عليها فيما بعد العالم الإسلامي، ومنه كانت الأمة العربية؟ دعونا نسأل: لماذا ابتعدنا عن قيمنا الروحية والإنسانية والاجتماعية والإنتاجية والإبداعية؟ دعونا نخضْ غمار مسألة أسباب الانهيار بمصارحات علمية تقنية.

يستمر الانهيار للعروبة نتاج ضعف الشخصية الثقافية العربية واختباء فكرها وبقائه في جوهرها، من دون القدرة على إسعاف حالات الانهيار، أو وقفها على أقل تقدير وصراعها في الوقت ذاته مع الرؤى الدينية المنتشرة، وخلافها الدائم مع مجموعة العقائد المنتشرة الماركسية البعثية القومية الاشتراكية الوجودية، وتمسك الشارع العربي بالأصولية الإسلامية وسلفياته التاريخية والمستحدثة، ما أنشأ ومن ثمَّ قاد إلى حدوث جدليات تبحث بشكل دائم عن حلول، من دون القدرة على إنتاج الحلول، وساعد على ذلك كثيراً الفرقة الهائلة القائمة ضمن النظام العربي، وقيام كل فريق يعتلي سياسة دولة تبني فكرة مختلفة عن الآخر، ومحاولة فرضها، أو نشرها بالخبث، أو بالدهاء، لا من خلال نشر الفكرة وإيضاح أهدافها وغاياتها، وأيضاً فشل جميع مشاريع الوحدة، وصولاً إلى فرط عقد التضامن، وانتهاءً بالتفكير في الانقضاض على بعضهم، والكل واقع في هذه المطبات المرعبة، ما يؤدي إلى خضوع الجميع إلى هيمنة الأجنبي، أو الاستعانة به من أجل بقائه.

لا أغالي إن أصررت على أنَّ دمشق وحدها تشكل العمود الفقري الحامل الدائم للعروبة والإسلام، لأنَّ العروبة تمثل شخصية التنوع والتعدد للإنسان العربي، وتؤمن به، وفي الوقت ذاته الانتشار الإسلامي وثباته وقوته، ما كان ليكون لولا دمشق، حيث منها انطلق إلى الشمال الإفريقي ومحيطه الآسيوي، ولولا ذلك لبقي منحصراً، وعندما أطلق عليها القادة العرب بأنها قلب العروبة النابض، نطقوا الحقيقة التاريخية والحداثوية؛ فهل ما يجري اليوم على الساحة العربية، يجري من أجل تدمير فكرة العروبة؛ أي يشكل السعي الحثيث لتدمير دمشق، أو السعي لانهيارها، حيث إن حدث ذلك، اتجهت العروبة إلى الشخصية الدينية الشمولية، ومؤكد انهيارها؛ فهل ندرك ما يجري، وبأنه محاولة لتدمير الأمة برمتها؟.

د. نبيل طعمة

انقلاب القيم وانحسار مفهوم الشرف

«لستُ جارية».. عندما تتحول الزوجة إلى جارية

وائل العدس

قطع المخرج ناجي طعمي أكثر من نصف الطريق نحو إختتام تصوير مسلسله الجديد «لستُ جارية» عن نص للكاتب فتح الله عمر، وإنتاج المؤسسة العامة للإنتاج الإذاعي والتلفزيوني بالشراكة مع مؤسسة «الفارس».

وتنقلت الكاميرا بين دمشق وطرطوس، على أن يمتد التصوير حتى مطلع الشهر القادم.

ويؤدي أدوار البطولة كل من: عبد المنعم عمايري، وكندا حنا، وعبد الهادي الصباغ، وإمارات رزق، وزهير رمضان، وضحى الدبس، وسوسن ميخائيل، ورنا شميس، وتولين البكري، وهناء نصور، وعلي كريم، ويزن خليل، ورشا بلال، ومديحة كنيفاتي، ومجد حنا، ويامن سليمان، ويوسف عساف، ومي مرهج، وأحمد رافع، ومحمد خير الجراح، وريم معروف، ووفاء بشور، وكثر آخرين.

قصة العمل

يتخذ العمل من مأساة (ميس)، وعلاقاتها متعددة المناحي بمن حولها إطـاراً عاماً تتلخص بمناقشة قضية انقلاب القيم في مجتمعاتنا العربية المعاصرة، وانحسار مفهوم الشرف بحيث لم يعد يشمل إلا ما يتعلق بالمرأة التي يترصد الجميع أفعالها، ولا يفوتون الفرصة لتدوين أخطائها بـ(المعيار الاجتماعي السائد) في دفاتر عار تظل تلاحقها، في حين يتم على الأغلب تجاهل الجاني أو الشريك بالخطأ مادام أنه رجل، في حين الانحرافات الأخلاقية الأخرى كالغش والرشوة، واستغلال النفوذ، فغالباً ما ينظر إليها على أنها دلائل شطارة، الأمر الذي جعل نساء كثيرات يتمردن، ويتجاوزن الكثير من الخطوط الحمراء التي فرضتها الأعراف والتقاليد.

ويعري العمل ازدواجية هذه المجتمعات، عبر عدة محـاور، منها علاقة «ميس» بـ«غالب» التي تنطوي على حب كبير، تتكلل بالزواج، إلا أن هذا الزواج يتحول لمأساة حقيقية، حينما يكتشف الزوج أن عروسه تخفي سراً كبيراً، ما يجعل من حياتها معه جحيماً حقيقياً، بعد رضوخها لشرطه تحت وطأة شعورها بالذنب بأن تبقى مدى العمر جارية له حتى لا يفضح أمرها، وأملاً منها بأن تستعيد حبه لها، بعد فوزها بغفرانه، سالكة كل السبل المؤدية لذلك حتى على حساب كرامتها، وأنوثتها.

بالمقابل يخوض المسلسل في عوالم الفساد، والصراع الطبقي عبر شخصيتي والديهما، وعلاقة كل منهما بأسرته؛ راسماً صورة بانورامية عن مجتمع مختل، ينخر السوس في خليته الأساسية «الأسرة».

أولاً وأخيراً

في هذا المسلسل يقدم طمعي نفسه منتجاً إلى جانب كونه مخرج العمل، حيث يشارك المؤسسة بإنتاج المسلسل، عبر مؤسسة «الفارس» التي يمتلكها، ونفذت الموسم الفائت المسلسل اللبناني «عين الجـوزة» وهـو من إخراجه أيضاً.

ويؤكد طعمي أنه مخرج أولاً وأخـيراً، أما خوضه تجربة الإنتـاج فيأتي إيمانـاً منه بضرورة دعم صناعة الدراما التي تمثل أحد الأوجه الحضارية لسورية، بمواجهة الأزمات المتلاحقة التي تعانيها هذه الصناعة، وأبرزها خيار فنانين وفنيين سوريين كثر العمل خارج البلاد، وهو لا يقف ضد هذا الخيار لكنه يجد أن من واجبه كغيره من الكثيرين الوقوف إلى جانب الدراما المحلية، وقال: «الدفاع عن دراماتنا السورية، وإبقاؤها واقفة على قدميها بالمقام الأول، رغم المخاطر، ثم تأتي المكاسب المادية في الدرجة الثانية.

حالة مرضية

ويجسد عبد المنعم عمايري شخصيّة «غالب» الذي لا يستطيع تجاوز صدمة اكتشافه لسر أخفته عنه زوجتـه ليلة زفافهما، ليتحوّل حبه الكبير لها، إلى حالة مرضية من الشك، تدفعه إلى سلوك عدائي تجاهها، تقابله بصبر ومداراة، وتحاول دائماً التماس الأعذار له، تحت وطأة شعورها بالذنب، ولأنها تحبه، وتسعى للدفاع عن عائلتها بشتى الوسائل.

بالمقابل، يتمادى «غالب» في استفزازه لها، وإهماله لعائلته الصغيرة، ويخوض علاقات نسائية متعددة، سيدفع ثمنها لاحقاً.

واعـتبر عمـايري أن الشخصية ضحية لمجموعة تقاليد، وأعراف سائدة في مجتمعاتنا العربية، فـ(غالب) عنده عقد لا يستطيع تجاوزها كأغلبية الشباب العربي، هو يحب (ميس) كـثيراً، لكنه لم يتقبل السر الـذي تخفيه، فتضاعف الوهم لديه، ودخل في أزمة نفسية، إضافة إلى أن ظروف نشأته والعلاقة المتوترة بين والديه، خلقت لديه الاستعداد للذهاب باتجاه سلوك نفسي غير معتاد، مثله مثل أي شخص يعيش في هذا العالم الذكوري.

وأشار إلى أن العمل يتناول أزمـات نفسية، واجـتماعـية، وأسـريـة عـدة تـعـاني منها مجتمعاتنا العربية، ومهدت لما وصلنا إليه.

عقدة الذنب

تجسد كنا حنا شخصية «ميس» التي تشكّل مأساتها، وعلاقاتها المتشعبة بمن حولها الإطار العام لحكاية العمل.

في حديثها عن الشخصية؛ تعتبر أن (ميس) من القلائل الذين يحبون بهذا الشكل، وتتجسد فيها قوة المرأة التي يمنحها إياها الحب دفاعاً عن عائلتها، ووجودها، وشريكها، فهي تدفع ثمن حادثة جرت معها خلال مراهقتها، تعيش عقدة الذنب، وتحـاول تبرير سلوك زوجها تجاهها، وتهبه كل حياتها.

ولا تعتبر «ميس» ضعيفة بل تتجسد فيها قوة المرأة التي يمنحها إياها الحب للحفاظ على وجودها، وعائلتها، وشريكها، وتتحمل لأجل ذلك الإهانات، والقسوة، والاستفزازات المتكررة من حبيب أصبح زوجها، اقتناعاً منها بأنها المسؤولة عما يحدث، وليس هو.

بين الظلم والتحمل

يـؤدي عبد الهادي الصباغ شخصية «أبو نورس» والد «ميس» وهو رجل حازم، ظالم، حاد الذكاء، لا يترك ثأراً له مهما طال الزمن، ويـتـجـاوز كـل الخـطـوط الحـمـراء لتحقيق مصالحه، وإلحاق الأذى بمن يقف في وجهه، ويحرص على تلقين دروس الفساد لأولاده، ويرى أن تجاوزه لكل الاعتبارات الأخلاقية دليل شطارة.

أما هناء نصور التي تؤدي دور «أم نورس» فتقول إنها تقدم شخصية بعيدة كلياً عن شخصيتها الحقيقية، فهي المرأة التي تحمل همّ الجبال، وتتحمل الظلم والأسى وتبقى صامدة لتعطي الآخر فرصة التغيير، قبل أن تنفجر في اللحظات الأخيرة.

وأكدت أن «أم نورس» هي المرأة التقليدية التي لا تريد أن تنفصل عن زوجها كي لا يتشرد أولادها أو تتشكل عندهم صدمة، فتتحمل الذل والقهر والإهانة من زوج جبار وحقير، لكنها بالنهاية تخرج عن طورها وتقف مع أولادها ليحققوا أمانيهم.

وبين الجشع والتعنيف

كذلك يبدو رجل الأعمال «فـؤاد أبو غالب» الذي يؤديه زهير رمضان انتهازياً، جشعاً، استولى على أموال زوجته السابقة «حنان» وعمّة «ميس»، التي ذاقت على يده الأمرّين، وانعكس ظلمه لها على ولـديـه «غـالـب»، و«منى» الذين تحولا إلى شخصين مأزومين، كما يسعى الأب بعد تخليه عن أسرته، لتحقيق مصالحه، عبر العديد من العلاقات النسائية القائمة على الاستغلال.

ضحى الدبس التي تؤدي دور «حنان» تسعى لأداء هذه الشخصية بعيداً عن الصورة النمطية للمرأة المعنّفة، فرغم ملامح الانكسار في عينيها، إلا أنها كأمّ تتنزع لحظات القوة كي تبقى واقفةً إلى جانب ولديها، وتوجههما، رغم إمعان أفعالهما في تحطيمها.

وتوضح بأن العمل يركز على نقطة في غاية الأهمية هي أن العنف يتحول إلى دوامة تنتقل من جيل إلى جيل، ما لم يكن هناك وعي لذلك.

أسرة صالحة

بالمقابل تظهر عائلة «بشير مهران» (أحمد رافـع) كمن تقـاوم الطوفـان، حيث يحاول الرجل بكل ما أوتي من حكمة وجهد أن يكوّن أسـرة صالحة، ليواجه خـلال ذلـك عقبات كثيرة، أهمها تحكم قانون الشارع في تربيةّ الأولاد.

وفي هذا السياق سيتطرق المسلسل إلى تجربة صعبة عاشها حين قام أحد أبنائه «رائد» برشوة أحد موظفي الامتحانات في الجامعة لتسهيل نجاحه، لكن التحدي الأكبر الذي يواجهه هو عداء «أبو نورس» له.

مجد هو من سيقدم شخصية «رائـد» وهو متخرج حديثاً في كلية الهندسة، ويواجه مشكلة تتعلق بظروف تخرجه، وهو شاب جريء يناصر الحق دائماً، وانفعالي بحيث تقوده خشيته على سمعة أسرته الطيبة لردود أفعال متسرعة أحياناً، ويعيش قصة حب مع «منى».

عقدة متحركة

تؤدي رنا شميس دور «منى» وتدير صالون تجميل. تعيش آثـار الظلم الممـارس بحق والدتها من قبل والدها، ما يتسبب لها بعقدة في علاقتها بالرجال. وبغية تعويض النقص، تتحول إلى فتاة شرسة وغير متوازنة.

وكشفت أن «منى» تتعرف على عدة رجال وتخطب لأحدهم، فتنتزع منه سيارته ومنزله، لكنها بالوقت نفسه لا تتصرف بتصرفات غير أخلاقية وإنما «فشة خلق» فقط، فهي إنسان طيب وبالنهاية تنتصر فيها بذرة الخير.

تتحول إلى عقدة نفسية متحركة، لكنها طيبة، وبقدر ما تبدو أفعالها قاسية، إلا أنها خارجة عـن إرادتـهـا، ومـبررات قسوتها واضحة للمشاهدين، حيث تسيطر عليها المخاوف من خوض تجربة الحياة الزوجية، بسبب إخفاق زواج أمها.

فتاة جميلة

بدورها تؤدي مديحة كنيفاتي دور فتاة جميلة تقع في حب رجل متزوج فتسبب له الكثير من المشاكل مع زوجته وفي حياته العائلية.

وتقول: إن المسلسل يتناول تفاصيل عن انهيار القيم في المجتمع، وعن حصر الشرف في المرأة فقط في الوقت الذي يكون فيه للرجل أخطاء مغتفرة، لكن هناك انقلاب على الكثير من المفاهيم أو ربما يصلح لأن يسمى تمرداً للمرأة نتيجة الضغوط الاجتماعية الممارسة عليها.

سيدة ثرية

وتظهر سوسن ميخائيل بـدور سيدة ثرية متـزوجـة مـن رجـل أعـمـال فـاسـد، وتسوء علاقتهما بعد اكتشاف خيانته لها.

حب ومعاناة

أما إمـارات رزق فتؤدي شخصية سكرتيرة تعمل في شركة ضخمة يترأسها رجل أعمال ثـري «رافـع» تقع لاحـقـاً في غرامـه وتـبـدأ معاناتها معه حينما يورطها بإحدى صفقاته المشبوهة.

> عبد المنعم عمايري يتمادى في استفزاز كندا حنا

كن صوتي لأكون صداك

من بينيلوبي إلى طرفة وفيرا بين الصوت والصورة

نجاح إبراهيم

مقدمة ١:

كن صوتي لأكونَ صداك.

وذاك اللقب المستحبّ الذي أطلقته عليّ « ابنة الجبل» ما برح الوجود يشدو به.

مقدمة ٢:

أطلق الصوت واصغِ إلى ذياك الصدى– لا أصمّه الله– وقل كلمتك ستقطف المشتهى، فهل أوحى منه؟!.

مقدمة ٣:

ذلك الصوت أفلتَ في واد محصور بين جبال بها من الصمت ما يكفي، فأينع صدى، لا أبالغ إن قلت سيدوم أبداً، ثمار الشهرة تتلألأ مثل عناقيد بلورية بين أغصان دالية في ضوء قمر بهي.

سأتجاوز حدود كلينا، سأتخطى أناك وأناي، وأدخلُ عمق الأسطورة، التي وقفت حائرة أمام بعض أصواتها أو صداها، فحرت بينها وبين واقعة حدثت وسمعنا بها.

ثمّة مثل عربي قديم يقول: «أخرقُ من ناكثة غزلها». وقد قيل في امرأة من قبيلة قريش، واسمها أم ريطة بنت كعب بن سعد بن تميم بن مرة، وصمت بالخرقاء لأنها كانت تنقض غزلها وغزل جواريها بعد أن يكتمل، ولم أعثر على هدف أو غاية لفعلتها تلك، وربّما لم يحظ الأولون قبلي بمغزى لها أيضاً، لهذا قيل: إنها حمقاء، أو خرقاء، وضُرب بها المثل في الخرق، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم:

«ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً».

ولنعد إلى الأسطورة ونتذكر «بينيلوبي» زوجة أوديسيوس التي كانت تنسج طوال النهار غزلها، معللة كلّ الذين يطلبون يدها بالموافقة، وفي الليل تنقض ما غزلته، لتبدأ كلّ صباح من جديد.

وثمّة غاية لقيامها بهذا، إذ ركب زوجها البحر ولم يعد، وأقسمت على الوفاء له على الرّغم من جمالها وشبابها وكثرة طالبي يدها.

فالأسطورة لا شك هي الصوت لأنها الأقدم، والصدى ما كان عند المرأة القرشية.

على الرّغم من اختلاف الأسطورة والصدى فقد خلدا الهدف لدى كلٍّ من المرأتين، لاشك أن الأساطير كانت الصوت، الذي فتح الأفق لكلّ صدى، على الرّغم من أن البشرية خاضت الأفعال ذاتها.

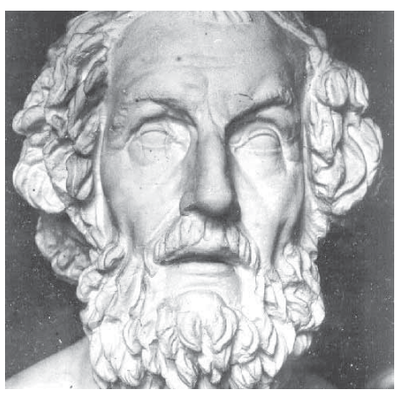

هوميروس

لامارتين

ومن منا لا يذكر قصة جرت في الجاهلية، وهي قصة «المتلمس» خال طرفة بن العبد، حيث أغضب ملك الحيرة «عمرو بن هند» حين هجاه طرفة، بعدما وقفا في بابه ولم يعرهما التفاتة، أو يمنحهما مالاً، فأراد عمرو أن يقتل طرفة لكنه خشي من هجاء المتلمس له، فقال لهما: اذهبا إلى البحرين، هناك تجدا ما يصلكما بالعطاء. وأعطاهما صحيفة مختومة، وفي الطريق شكا بها بعد أن فتح رجل أعينهما، وفضاها، وإذا فيها: «إذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه، وادفنه حياً».

وثمّة حكاية هوميرية، ربّما كانت الصوت الحقيقي لصدى قصة المتلمس، وهي قصة حفيد سيزيف «بيليروفون» الذي عشقته الملكة «أنتيا» لجماله، فرفض أن يعاشرها، فتعهدت به إلى الملك « بروتيوس» وطلبت قتله، ولكن الملك كان يحبه، فصعب أن يقيم الحدّ عليه، فأرسله إلى «ليسيا»، وحمّله رسالة تتضمن عدداً من الرموز تشي بقتله. ولكن ملك «ليسيا» ارتأى أن يكلفه بمهام خطيرة لايمكن النجاة منها، بيد أن الشاب ينتصر ويؤكد للجميع أنه سليل آلهة.

القصتان جرتا في مكانين مختلفين وزمنين مختلفين أيضاً، لكن لا يمكن إلا أن تكون إحداهما صوتاً والأخرى صدى. وإن كنا نستطيع أن نفرق بسهولة اتكاءً على الزمن.

وقصة زليخة في العهد القديم، وعشقها ليوسف حين راودته عن نفسها، فتمنّع ولاقى ما لاقاه من ظلم وحبس حتى ظهر الحق، وقيض للمرأة أن تبقى عاشقة له، تتبع ريحه أينما ذهب. وما إن سمحت العناية الإلهية بالارتباط به عزفت عن الأمر، وتحوّلت من حبها لبشريّ إلى حبّ خالقه.

وهذا يذكرنا بـ(الفيرا) معشوقة الشاعر الفرنسي (لا مارتين) التي تركت حبّها الإنساني في آخر عمرها لتتجه إلى حبّ الله، ارتأته استمراراً لصوت في داخلها لا تريد له الزوال.

ولو أردنا أن نتمثل واقعنا كأدباء، فإن الصوت والصدى لن يغيبا عن نصوصنا، بدءاً من العنوان، فأي عمل إبداعي لابد أن نضع له عنواناً، ربّما يأتي أولاً، وربما لاحقاً.

بيد أنه يبقى العنصر الأساسي في النصّ، على الرّغم من إيجازه، إذ إنه يعدّ المفتاح الذي من خلاله يمكن الولوج إلى عالم النصّ وكشف أسراره، ويشي بفضاء النصّ، أو فكرته كعنوان (رسائل الحب والحرب)، (الحرب والسلام).

فالعنوان يـؤدي «وظيفة شكلية وجمالية ودلالية، تعدّ مدخلاً لنصّ كبير، كثيراً ما يشبهونه بالجسد، رأسه هو العنوان».

فهل يكون النصّ صوتاً والعنوان صدى؟

من الأول الذي يلحق الثاني؟

لاشك أن كلّ كاتب يستطيع أن يجيب عن السؤال، وتبقى المسألة نسبية بين كاتب وآخر. والسؤال الذي ينبلج من الفكرة: هل الصدى يأتي متأثراً بالصوت فيقلده؟

ولم يحمل بذرة خلوده في داخله؟

هل يمكن أن يموت الصوت، وهل ثمّة محاولة لقتله؟.

ثمّة عالم إسلامي حُبس في بئر، أرادوا من هذا القصاص أن يُخرسوا صوته، أفكاره، فخرج بعد سنين بسبعة مجلدات، ظلت الأجيال تنهل منها قروناً وما زالت.

لقد ارتأى أن يعوّض خسارته في الصوت الذي خُنق بين جدران العتمة، والبرودة والرطوبة، أو أن يحيد عن قتله، أو أن يتجاوزه، فكان أن اختار صدى جاء مدوياً.

لا أعني أن الصدى يكون دائماً حالة إيجابية، أو خلوداً مشرفاً، فكثير من القادة لم يتركوا سوى صدى سيئ، مشبوه، أمثال نيرون، وكاليغولا، وهانيبعل، والاسكندر المقدوني، وهتلر وآخرين امتداداً إلى وقتنا الراهن.

وكان بإمكانهم أن يعوا حقيقة أصواتهم، فيكفوا على أن يكون صداها مروعاً.

أو يدركوا أن ثمّة صدى يتخلق، ولا يليق بأصواتهم/ مناصبهم، ويجدر أن يأتي مغايراً. ولكن على من تلقي بمزاميرك يا داود، حالهم حال الحداد الذي صنع المسامير وتمّ غرزها في لحم المسيح.

فلو كان يعرف صوته /مهنته ستأتي بصدى أرعن، لترك تلك المهنة وكتم الصوت عن آخره.

خلاف ذلك فإن ثمّة صوتاً مستحباً رغب الكثيرون أن يكونوا له صدى، راغبين في أن يقطفوا بذرة الإبداع منه، متجاهلين حقيقة أنهم مهما حاولوا فلن يكون بلا صوت، وذلك ينطبق على أشعار في العصر الجاهلي، قرأناها لأكثر من شاعر، وتكرارها لم يكن سوى إعادة تشكيل/ صدى لما بدر عن الصوت الذي انطلق أولاً.

فإذا وقفنا عند بيت لامرئ القيس، يقول فيه:

«وقوفاً بها صحبي علي مطيهم

يقولون لا تهلك أسى وتجمل»

لوجدنا أن طرفة بن العبد يكرّره، فيقول:

«وقوفاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد»

وثمّة عبارة اشترك في تكرارها عشرات الشعراء وهي: «تبصّر خليلي هل ترى من ظعائن؟» وكي نتلافى الدوران والبحث في الشعر الجاهلي عن الصوت، فإننا سنجده للملك الضليل بلا منازع وكل ما أتى بعده مجرد صدى، حينها نقول إن الصوت متفرد بحضوره لا محالة.

ولعل ما يؤكد هذا التكرار اعتراف زهير بن أبي سلمى في بيته الشهير:

ما أرانا نقولُ إلا معاراً أو معاداً من قولنا مكرورا.

فهل يستطيع الصدى أن يسرق الضوء من الصوت وينال البقاء؟.